نوح

كانت فترةٌ بين آدم ونوح ، عَمَر فيها الكون ، وتَضَجَ فيها وَعْى الناس ، وظل الخلْق يعبدون الله ، متدينين بالدين الذى علمهم أبوهم آدم .

فلما طال بهم العهد ، شغلهم المعاش عن دينهم ، فبعدُوا عن ربهم ، وفَترت حماستهم لتديُّنهم ، وانطمست صورة التوحيد الواضحة فى قلوبهم ، فاتخذوا تماثيل وأصناماً يرمزون بها إلى الله ، ثم تخيلوها صورة الله ، وقالوا

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(الزمر الآية ٣)

ثم بالغوا فى تصوير التماثيل ، وفى زخرفة الأصنام ، وفى تمجيدها ، والاحتفاء بها ، ثم أسرفوا فى تقديسها ، حتى ألهتهم عن الله ثم قالوا : هى الله ، وعبدوها من دون الله ، يرجون خيرها ، ويخافون عقابها .

* * *

فكانت حياتهم حياة الكافرين المشركين ، لا إله ولا دين ولا خلق .

* * *

ففسدت حياتهم ، وساءت أخلاقهم ، واضطرب معاشهم ، وفشا العيب فيهم . وعاندوا نبيهم ، واستهزءوا بمرشدهم ، واستكبر أغنياؤهم ، وهان فقراؤهم .

بل شاع فيهم خيانة الزوجات ، وعقوق الأبناء آباءهم .

* * *

وفى مثل حالهم ، تتجلى حكمة الله فى أن يرسل الرسل ، ليدرك الخلق برحمته ، ويرحمهم برسالته ، وينقذهم من الضلالة ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعود بهم إلى الإنسانية السامية ، والفطرة السليمة .

وأوْحى الله إلى نوح ، أن أهدِ قومك ورغِّبهم فى عبادة الله . وحذِّرهم عبادَة الأصنام ، وخوِّفهم عاقبةَ الشِّرك بالله ، وقُلْ لهم

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

(نوح الآيتان ٢/٣)

الذى أبدع الكون ، وخلق الخلق ، ورفع السماء ، وسوى الأرض ، وأنبت لكم الزرع ،

وأدرَّ الضَّرْع ، وسيَّر النجوم فى الأفلاك ، وأطلع الشمس ، وأزهى القمر ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون .

* * *

ولو حاول المثّالون ، صانعو التماثيل ، أن يقيموا تمثالاً للصبر ، وسَعَةِ الصدر وطول البال ، وتحمُّل الأذى ، لما وجدوا أوضح فى التعْبير ، ولا أَخْلَدَ للذكرى ، من تمثال نوح .

* * *

لَكَ الله يا نوح ، طَوَيْتَ تسعمائة ، وخمسين سنة ، تدعو قومك إلى الله ، وهم يكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام والأوثان من دون الله .

يالَكَ من مُعلم ، طويل البال ، تقضى العمر كله ، وتدعو مَنْ لا يستجيبون ، وتُفهم من لا يفهمون !

وما كانوا أغبياء ولاَ مغفلين ، وإنما كانوا معاندين مستكبرين والعناد يورث الكفر ، والعياذ بالله .

* * *

ونوحٌ كان معلمًا ، وخيرَ معلم ، اجتمع فيه كل صفات المعلم الكامل ، اجتمع له الإخلاص لرسالته ، وتمتْ له نعمةُ فصاحته ، وطراوةُ لسانه ، وصفاءُ بيانه ، ورجاحةُ جنانه ، وبراعةُ طريقته ، وسلامةُ طويتّه ، وسعةُ صدره ، وسموُّ نفسه .

حتى كان يترفع عن إسرافهم فى أذاه ، وعن تبجُّحِهم فى معارضته ، وقِحَتهم فى مجادلته وسخريتهم به ، واستنكافهم أن يؤمنوا برسالته ، واستعظامهم أن يُسَوِّىَ هذا الدين الجديد ، بين الأغنياء العُتاة ، والفقراء الحفاة .

ثم هذا التحدى الباجح ، حين قالوا له : هاتَ ماعندك من وعيد وتهديد . وإن لم تأتنا به ، فأنت كاذب الكاذبين .

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(هود الآية ٣٢)

* * *

ولم يثنه العناء ، ولم يُيئسه التنطُّع بل أخذ يدعوهم ليلا ونهارًا ، وسرًّا وجهارًا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا .

* * *

ثم فتح لهم باب التوبة ، ونوافذ الأمل ، ومنَّاهم بأعلى الأمانى ،

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

(نوح الآيات ١٠/١٢)

ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا واستكبارًا .

وكلما دعاهم ، صموا أسماعهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأخفوا رءوسهم فى أذيال أثوابهم ، حتى لا يروه ولا يسمعوه .

* * *

واتخذوا فى مجادلته أساليب ملتوية ، ومغالطات ومناقضات فقالوا مرة : ما أنت إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الله من شىء .

ولو أراد ربك أن يرسل رسولاً ، لأنزل ملكًا ، وكنا نحترمه ، ونستمع إليه .

وقالوا مرة أخرى : أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون ؟

وكيف نرتضى دينًا ، يُسَوِّى بيننا ، وبين طَغَام الناس وسفلتهم ؟ اطردْ هؤلاء الأرذلين يانوح ، ونحن نتبعك ، ونؤمن بك ، ونعزّك ، وننصرك !

ونوح يقول : ما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين .

* * *

فلما أعيا حيلتهم ، واستنفد طاقتهم فى جداله ، وقتلهم بصبره ، وألزمهم الحجة ، سئموا ، وضجروا ، وقالوا :

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾

(الشعراء الآية ١١٦)

* * *

وهو كذلك ، قد نفِدَ صبره وكاد ييأس ، وظنَّ أن الله قد تخلَّى عنه ، وأنه مكذوبٌ فى رسالته .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ﴾
(يوسف الآية ١١٠)

* * *

وأوحى الله إلى نوح : أنه يكفيك ما بذلت ، وما احتملت ، وقد أخلصت فى مهمتك ، ولم تدّخرْ وسعًا فى طاقتك .

وما عليك ، إذا كنت بذرت البذر فى أرض سَبِخَة ، تُنكر حَبَّها وتأكل خيرها وثمرها .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾
(هود الآية ٣٦)

* * *

وتغيرت نفس نوح على هؤلاء الحمقى الجاحدين ، بعد ما كان يحرص عليهم ، وهم فى عصيانه سادرون .

ولم يبق إلا الغضب عليهم ، والنقمة منهم ، وسؤاله ربه ، أن يعاقبهم ، وأن يشدِّد عليهم ، وأن يريح الأرض والعالم بهلاكهم .

فرفع وجهه ، وبسط كفه ، ودعا الله عليهم .

* * *

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾
(نوح الآيتان : ٢٦/٢٧)

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾
(نوح الآية ٢٨)

سورة من غضب ، وصرخة للحق ، وغضب لله ، واستنزال اللعنة ، حتى لو كانت على زوجة أو ولد .

* * *

تتبَعَهُ الوحى يقول

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

(هود الآية ٣٧)

حتى لو كانوا أقرباءك وأنسابك ، أو زوجتك وذريتك .

* * *

وصنع السفينة ، بعيدة عن الماء ، واحتمل فى ذلك جهدًا ومشقة ، وسمع ما يكره ، وياما أسمعوه من قوارص الكلم ، وقذائف النكت وبذاءات السخرية .

وكان حلمه يراوده ، وصبره يعاوده وتخويفه إياهم بأن الغد قريب ، وستندمون ، وتعضون على أصابعكم ، حين تلقون العذاب ، سنرد عليكم الهزء هزأين ، والتهكم تهكمين .

وحان الميعاد ، المقدور فى أقدار الله .

* * *

وبانت العلامات المؤذنة بالعقاب النازل .

فتفجرت المياه من النار ، وفاضت من الأفران ، وفارت من المَحْمَى .

وناداه الوحى : أن يانوح ، قد أزفت الآزفة ، وليس لها من دون الله كاشفة .

ويا نوح ، قم ، فاجمع شملك ، ولُمَّ أهلك ، وناد من آمن بك واتبعك ، وخذ معك زادك ومتاعك ، وخذ من الطير والحيوان والوحش ، فالعالم سيفنى ، ولا يبقى إلا ما تحمله سفينتك ، فهى بذرة ونواة لعالم جديد ، بعد أن تُهلك هذا العالم الفاسد .

* * *

وقد عالجتهم يانوح طول السنين ، ولم يشفهم علاجك ، والبتر آخر العلاج يا نوح .

* * *

﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾

(هود الاية ٤٠)

* * *

فمن هم يا ترى ، أولئك الذين سبق عليهم القول ، ولاشفاعة فيهم ، ورحمة ترجى لهم ؟

هم هؤلاء الكفرة ، وتلك الزوجة ، وهذا الولد : فهؤلاء الكافرون ، عصوْا ربهم ، وجحدوا دينهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب .

وما شأن تلك الزوجة ؟

والزوجة هى الصاحبة ، وشريكة الحياة ، ومكمن السر ، ومثوى الراحة ، والراعية فى شئون زوجها ؟

فما شأنها ؟ حتى يطرحها نوح فى مطارح الكفرة ، ويتبرأ إلى الله من عشرتها ؛ ويقطع حبل وصلها ، ويتخلص منها ؟

وما جنايتها معك يا نوح ، حتى تقتلها وتُهلكها ؟ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحريم الآية ١٠)

فلم يشفع فيها أنها زوجة نبى وأنها تُكرَمُ من أجل زوجها ، وقد كانت مسكنه ومرقده ، وقد كانت محسوبة عليه .

* * *

لقد خانت زوجها ، ويابئس ما فعلت !

خيانة ، أى خيانة ، وفى أية صورة كانت ، فهى خيانة .

فى انحيازها إلى الكافرين أعدائه !

خيانة أى خيانة ، ومهما كانت ، فهى خيانة .

* * *

ألم تلد له الولد العاق ؟ المتمرد على ربه ودينه وأبيه ؟ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود الآيتان ٤٢/٤٣)

أفما كان ابنها فى صف أعداء أبيه ؟

وما أعنف أن يكون الولد ، محطما للعضد ، مهدمًا للسند ، مفتتا للكبد !

* * *

لك الله يا نوح ، وأنت فيما أنت فيه ، يهزُّك الحنان ، وتغلبك العاطفة ، وتلفتك الأبوة عما أنت فيه :

عن الأرض الفوّارة الفيّاضة ، والسماءِ المطّارة الهطالة ، والرياح العواصف ، والأمواج الغواضب ، والسفينة ، وهى تسير باسم الله ، وعلى بركة الله !

بركات الله عليك يانوح ، وعلى من اتبعك من المؤمنين القلائل ، وهم لا يتجاوزون السبعين ، حين يركبون سفينتك ، ويلوذون بدينك .

ولعنة الله على الكافرين الهالكين ، وهم يفزعون ويستغيثون ، وفى الطوفان يفقهون ويغرقون ، تلاطمهم أمواج مائجة ، كالجبال الهائجة !

وأنت يانوح فيما أنت فيه ، تفزع إلى ربك تناجيه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ (هود الآية ٤٥)

وعدتنى أن تُنجينى أنا وأهلى ومَنْ معى .

وهذا ولدى ، من أهلى ، وفلذة كبدى ، وبه يقوى جلدى ، فى شيخوختى ، واختلال جسدى !

يارب أنقذ ولدى !

* * *

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ (هود الآية ٤٦)

فاكبح عاطفتك ، وثبْ إلى رشدك ، وزِنِ الأمور بعقلك لا بوجدانك !

فهذا ولد فاسد ، وساء فعله ، فليتبرأ منه أهله .

* * *

وأين يا نوح إيمانك بى ، وثقتُك فى ، واعتمادك علىَّ !

أنسيت أننى أنا ربك ، ومالكُ أمرك ، ليس لك أن تسألنى أن أكشف عنك حكمتى فى خلقى ، وتدبيرى فى ملكى !

فلا تسألنى ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . إنى أنا ربك يانوح ، وأنت رسولى ونبيى ، وما يسأل النبى عما لا يعلم وإلا كان فعله فعل الجاهلين الضالين .

* * *

وأفاق نوح من ضلاله ، ونزع عنه عواطفه ، وأحسّ بعد ماغفا ، وصحا بعد ما غفل ، وتعب واستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (هود الآية ٤٧)

وقبل الله توبته ، وغفر له ، وبارك عليه ،

﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ ﴾ (هود الآية ٤٨)

سلام الله عليه ، وعلى الأجيال والأمم التى ستتوالد وتتناسل من المؤمنين معه ، ليعمر الكون من جديد بهم ، كما عمره من قبلهم أبوهم آدم .

* * *

وسيكون من الأقوام أقوام ، يغفلون عن الله ، كما غفل الأقدمون من قبلهم ، وسيكفرون بالله ، ويعبدون الأصنام والأوثان من دون الله .

وسيمتعهم الله وسيُملى لهم ويمدّ لهم فى غناهم وفى أعمارهم ، حتى يغرقوا فى كفرهم ، ثم تحقّ عليهم كلمة العذاب ، فيمسّهم من الله عذاب أليم .

* * *

﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(هود الآية ٤٤)

* * *